الفكر واللغة

لجرجي شاهين عطية[(١)]

سمعنا منذ مدة لحضرة مدير هذا المعهد العلمي الزاهر المسيو غرافجران محاضرة نفيسة بالفرنسية موضوعها « الفكر واللغة » تناول فيها بالبحث المشبع قضية العلاقة بين ما لكل امة من الطرق في التفكير ، وما في لغتها من أساليب خاصة في التعبير ، مورداً على ذلك الامثلة العديدة من كثير لغات الشرق والغرب . وقد رأيت الآن ، وقد أتيحت لي فرصة التحدث اليكم ان اطرق هذا الموضوع نفسه ، مقتصراً في البحث فيه على ما يتعلق بلغتنا العربية خاصّةً ، فابيّن ما بين أوضاع هذه اللغة وتعابيرها وطرق التفكير عند العرب الاقدمين من العلاقة ، ثم انطرق الى ايضاح ما يجب التقيد به من العلاقة بين طُرُق تفكيرنا في هذا العصر وما يراد صوغه من الاوضاع والتراكيب الحديثة

(لغة كل قوم تصوّر افكارهم) معلومٌ ان لغة كل امة هي ما تتخذه للتعبير عن افكارها ، فلا يرتسم بها الا صُوَر ما يجري في اذهانها ، ويجول في خواطرها . والذي يؤثر في تكوين عقلية الامة وطرُق تفكيرها عاملان : البيئة الطبيعية ، ونريد بها ما يحيط بتلك الامة من جبال وبحار وانهار وصحارى وما اشبه ، والبيئة الاجتماعية ، ونريد بها ما لها من نظام أسرة ودين وطرق معيشة ونحو ذلك . على انا اذا حاولنا تطبيق هذه القاعدة على لغتنا العربية بالنسبة الينا وجدناها تنطبق عليها في بعض الشيء ولا تنطبق في البعض الآخر . فلغتنا تصوّر ما في افكارنا في ما تستعمله من ذلك تعمّداً ، وأما في ما تستعمله كل حين من التراكيب المجازية فانها لا تبسط الا صُوراً تمثل احوالاً غير احوالنا ، وتشير الى عصور غير العصر الذي نعيش فيه . وسنرى الآن ما في بعض تلك التعابير من تصوير لاحوال قدماء العرب الطبيعية ، ثم لاحوالهم الاجتماعية

(تصوير احوال القدماء الطبيعية) يقول الواحد منا اذا سُرّ : « وقد قرّت عيني ، وثلج

(١) نص المحاضرة التي القاها على جمهور من الادباء بالكلية العلمانية في بيروت.

صدري » ومعنى قرّت بردت ومعنى ثليج صار بارداً كالثلج ، واذا بحثنا في سبب اختيار البرد للتعبير عن السرور نجده في حالة العرب ومعيشتهم في بلاد حارة يؤذيهم حرّها ، وتؤلمهم رمضاؤها ، مما جعلهم يتصوّرون البرد أخص وسيلة من وسائل النعيم . وبديهي أنهم لو كانوا عائشين في بلاد باردة لما كان للبرد عندهم هذا المعنى المستحب ، ولا كانوا يدعون على من يريدون له السوء بقولهم : « أسخن الله عينه »

ونقول في الدعاء بالخير : « سقياً لفلان ، وسقى الله ايام الصبا » وما كان هذا الدعاء بالسقي الا لقلة المطر وندرة الانهار والينابيع في شبه جزيرة العرب بحيث كان السقي اهم ما يكن تمنيه من الخير . وهذا ما جعلهم يدعون المطر بالغيث لانه يغيثهم اي يعينهم في الضيق ، وبالرحمة من باب المجاز المرسل لانهم يعدونه رحمة من الله

ومن هذا القبيل قولنا : « رعاكم الله ، وسقياً لكم ورعياً » فضرورة الرعي لمواشيهم لم تكن تقل عندهم عن ضرورة السقي . فالماء والكلأ اشد العناصر ضرورة لحياتهم وحياة أنعامهم ، ولم يكن همهم التنقل من مكان الى آخر الا للبحث عنهما وعن المواضع التي يكثران فيها

ويدخل في هذا الباب قولنا مثلاً : من اهم واجبات الشبان الذّود عن حياض الوطن . فالحياض هي مجتمعات الماء ، وقد كان لكل قبيلة حياض خاصة تستقي منها وتوردها مواشيها ، ولما كانت تلك الحياض من اهم الاشياء كلها اذ عليها تتوقف صيانة حياتها وحياة سائمتها كان من الطبيعي ان يستميت جميع افراد القبيلة في الذود عنها ، وان يبذلوا دماءهم لمنع كل اعتداء عليها

ونقول : « ان هذه القصيدة من عفو الساعة » اي مما قاله الشاعر ارتجالاً بدون أن يجهد قريحته . واصل هذا من عفو الماء وهو ما فضل عن الشاربة وأخذ من غير كلفة ولا مزاحمة

وكثيراً ما نقرأ في الصحف العبارة الآتية : « يمموا البلدة الفلانية في الجبل انتجاعاً للصحة » والانتجاع هو طلب الكلإ والبحث عنه في مواضعه

ومثل هذا قولنا : « ان فلاناً من روّاد الهوى » والروّاد جمع رائد وهو الذي يسير امام القوم يبحث لهم عن مواضع الكلإ والماء

ونقول في قوم ضعف أمرهم : « قد ذهبت ريح القوم » وفي من ابتدأ امره في الظهور : « قد هبت ريح فلان » وما كان دخول الريح في مثل هذه المواضع الا لما لها من الاثر في إقامة البدوي وتنقلاته في الصحراء

ونقول في الامر الصعب المنال : « هذا امر دونه خرط القتاد » والقتاد شجر ينمو في الصحراء له شوك كالابر ، والخرط من خرط الغصن اذا نزع ورقه اجتذاباً بان يقبض على أعلاه ويمرّ يده عليه الى اسفله

وتقول في من يطعن على قوم : « هو ينحت أثلتهم » والأثل شجر عظيم من الطرفاء و« هو يقرع مروتهم » والمرو حجارة بيض تقدح منها النار

وتقول في من تشاوره في امر : « استورينا زند فلان » والزند هو حجر تقتدح منه النار ، واستيراء الزند استخراج النار منه

ففي كل ما تقدم تذكير بأحوال العرب في شبه جزيرتهم ليست بمألوفة ولا مما يعرفه أهل زماننا (تصور أحوال القدماء الاجتماعية) أما ما يمثل أحوالهم الاجتماعية في كلامنا فهو كثير من ذلك قولنا : « إن الازمة ضاربة أطنابها في هذه الايام » والاطناب ما تشد به الخيمة من الحبال ، والمراد بضرب الأطناب نصب الخيام للإقامة

ومنه قولنا « ان الكسل سبب الفقر » والسبب هو الحبل الذي توصل به أطناب الخيمة بأوتادها

ومنه قولنا في العزم على الأمر : « ضرب فلان أطنابه على هذا الأمر ، وألقى له جرانه » والجران مقدم عنق البعير ، يقال ألقى البعير جرانه اذا برك ومد عنقه على الارض كناية عن تمكنه في البروك

وكثيراً ما يرد في كلامنا هذه الجملة او ما شاكلها : « قرأت هذا الفصل برمته » أي كله . ومعنى الرمة الحبل البالي . قيل ان رجلاً دفع الى آخر بعيراً بحبل في عنقه ، فصار يقال لكل من دفع شيئاً الى آخر بجملته : أعطاه إياه برمته

ونقول : « حدا بي الى فعل هذا الامر او حداني اليه كذا » أي دفعني اليه ، وأصله من حدا الناقة أو حدا بها أي غنى لها وساقها

ونقول في من يسير في أمره على غير هدى : « هو يخبط خبط عشواء » أي ناقة عشواء وهي التي في بصرها ضعف لا تبصر ما أمامها ، فهي تخبط بيديها كل شيء اذا مشت لا تتوقى شيئاً

ونقول : « العجلة تنتج الندامة » وهذا من نتجت الناقة أي وضعت

ونقول في من يقصده الناس للاستفادة من علمه أو جدواه : « إن دار فلان محط الرحال » والرحل ما يوضع على البعير ليركب عليه مثل السرج للفرس

ونقول في من لا يكتم سره : « هو لا يكظم على جرة » والجرة ما يفيض به البعير من كرشه فيمضغه ثانية

ونقول في من هو خبير بالامور : « هو جذيلها المحكك » والجذل أصل الشجرة ينصب للإبل لتحتك به الجربى

وكثيراً ما نقرأ هذه الجملة : « بات القوم كأن على رؤوسهم الطير » اي ساكنين هيبة . وأصل المعنى في هذا ان الغراب يقع على رأس البعير فيلتقط منه القراد فلا يتحرك البعير لئلا ينفر عنه الغراب

ونقول : « قبض فلانٌ على أزمّة الأمور » و « انقادت اليه الامور بأعنّتها » والازمة جمع زمام وهو الخيط الذي يُشدُّ الى طرفه مقود البعير وقد يسمى به المقود نفسهُ ، والأعنة جمع عنان وهو سير اللجام الذي تُمسك به الدابة

ونقول في من يطمع في غير مطمع : « هو يكدمُ في غير مكْدَم » والكدم العضُّ بأدنى الفم ، وأصله في الدابة تكدم الحشيش

ونقول في من كثر رزقهُ : درّت عليه أخلاف الرزق » والخلف للناقة كالضرع للشاة

ونقول : « فعل فلانٌ هذا الأمر اعتباطاً » أي بدون موجب . وهذا من اعتباط الذبيحة اي نحرها لغير علة

ونقول : « ورّطت فلاناً في الامر » اي اوقعتهُ فيه ، وهـذا من الورطة وهي الوحل ترتطم فيه الدواب

هذا نزرٌ يسير من التعابير التي ليست في الواقع الا صوراً لحياة الاعرابي بين إبله وشائه . ولا يقل عنها ما نستعمله من التعابير التي تتمثل بها سائر مظاهر حياته

فمن ذلك قولنا : « أحرز فلانٌ القدحَ المُعلّى » أي سبق أقرانهُ . والقِدْح أحد قداح الميسر وهي سهام لا نصال لها ولا ريش ، والميسر قمار العرب بهذه القداح ، كانوا يشترون جزوراً ناقةً أو بعيراً ، فينحرونها ويقسمونها ثمانية وعشرين قسماً ويتساهمون عليها بعشرة قداح يفرضون في أحدها فرضاً واحداً ، وفي الثاني فرضين ، وهلمّ جرّاً الى السابع فيفرضون فيه سبعة فروض ومجموع ذلك ثمانية وعشرون ، ويضيفون اليها ثلاثة قداح لا حزّ فيها ، ويجعلون الكل في خريطة وهي وعاء من جلد ويضعونها في يد رجل عدل يسمونه المجيل أو المفيض ليجيل يده في الخريطة ويخرج منها قدحاً لرجل منهم . فان خرج لهُ قدحٌ من ذوات الفروض أخذ نصيبه من الاقسام بعدد الفروض التي فيه ، وان خرج لهُ قدح من الثلاثة التي لا فُرض فيها غرم ثمن الجزور . والقدح المُعلّى هو ذو الانصبة السبعة

ومن هذا قولنا في من فاز في أمر . « قد فلج سهمهُ » أي غلب واستظهر

ومنهُ قولنا : « أجال القوم قداح الرأي » أي تشاوروا وهو من إجالة القداح في الخريطة على ما تقدم بيانه

ونقول : « أعطِ القوس باريها » أي سلّم الأمر الى من هو أهلهُ

ونقول : « رميتُ عن قوس فلانٍ ونزعتُ عن قوسه » أي شاورتهُ وعملت برأيه « ورمى القوم عن قوس واحد » اي اتفقوا في الرأي والعمل

ونقول : « إن هذا الامر على قاب قوسين مني » دلالةً على شدة قربه وقاب القوس ما بين

المقبض والسِّية فلكلّ قوس قابان ، والسِّية ما عُطِف من طرفيها ، وفي القرآن قاب قوسين قلب فالمراد قابا قوس

ونقول في نفاد الصبر : لم يبقَ في قوس الاصطبار منزع ، وقد نفدت السهام حتى الاهزع والمنزع سهمٌ في الكنانة ، والاهزع آخر سهم من سهامها

ويرد في كلامنا كثيراً « سنوح الفرصة » وهذا من سُنوح الصّيد وهو ان يمرّ عن يمين الصّياد الى يساره فهو السانح ، فان مرّ عن اليسار الى اليمين فهو البارح . وكانت العرب تتيمن بالسانح وتتشاءم بالبارح

ونقول في اختلاط الامر : « اختلط الحابل بالنابل » والحابل صاحب الحبالة وهي شبكة الصائد ، والنابل صاحب النبل ، وذلك ان يجتمع المتناصون فيختلط اصحاب النبالة باصحاب الحبائل فلا يصاد شيء

ونقول في من وقع الخلاف بينهم وتفرقت وحدتهم : تصدعت عصا القوم ، وانشقت العصا بينهم ، والعصا آلة الدفاع عن النفس عند الاعراب فهي رمزُ القوة عندهم

ونقول « قشرت لفلان العصا » اي أطلعتُه على ما في سري من محبة او عداوة

ونقول : « جاءت هذه المصيبة على فلان ثالثة الاثافيّ » اي كمل بها الشر كله فلم يبق منه غاية . وهذا من الاثفيّة وهي الحجر من حجارة الموقد ، كان يوضع حجر في كل من الجانبين فاذا وُضع الثالث كمل الموقد الذي توضع عليه القدر

ونقول في تهدئة اضغان القوم : « فثأنا ما جاش من قدرهم » اي سكّناه وكسرنا حدته

ونقول في من يوقد نار الفتنة : « إن فلاناً يوقد في الخظر الرطب » والخظر شجر شائك تعمل منهُ الحظائر ، والحظر الرطب اذا أوقد انتشر منه دخان كثير حتى ينال أذاهُ كل أحد

ونقول في من يحسن التصرف بالأمور : انه يعرف من اين تؤكل الكتف . قالوا تؤكل الكتف من أسفلها لأن المرقة تجري بين لحم الكتف والعظم ، فاذا أخذت من أعلى جرت المرقة على الآكل وانصبت ، واذا أخذت من أسفلها انقشرت من عظمها وبقيت المرقة مكانها

(كيف رسخت هذه التعابير في صلب اللغة) كل هذه التعابير يستعملها الادباء ويستعملون اكثر منها في منظومهم ومنثورهم وقلّ منهم من يفطن لما فيها من تصوير احوال العرب الاقدمين في مختلف ضروب معيشتهم ولعمري ان هذا مظهر غريب في هذه اللغة لا نظن ان له مثيلاً في غيرها من لغات العالم . ولا مجال للعجب من رسوخ هذه التراكيب وامثالها في صلب اللغة بحيث صارت جزءاً متمماً لها لا يستغني عنه كاتب ولا شاعر في التعبير عن افكاره فان الادب في هذه اللغة بعد دخول الامة في عهد الحضارة ظل كما كانَ وهي في عهد البداوة ، وظلّ الشعراء في

دمشق وبغداد والاندلس يفتتحون قصائدهم بالبكاء على الاطلال ووصف النوق والخيام كما كان يفعل اسلافهم من سكان البادية في حين هم عائشون بين القصور والحدائق لا نوق لديهم ولا اطلال ، وقد بلغ من تشدُّدهم في المحافظة على هذه الاساليب انهم كانوا يحظرون على الشاعر ان يركب في طريقه الى محبوبته فرساً او برذوناً لمجرَّد ان الجاهليين لم يركبوا اليها الاَّ الناقة. وان كان قد قام من عاب عليهم هذه الخطة ودعاهم الى نبذها كما فعل في اوائل العصر العباسي الشاعر ابو نواس القائل

عاج الشقيُّ على رسم اسائله وعجت أسأل عن خمارة البلد
يبكي على طلل الماضين من أسد لا درَّ درك قل لي من بنو اسد
لا جفَّ دمع الذي يبكي على حجر ولا صفا قلبُ من يصبو الى وتد

فان هذه الدعوة لم تصادف آذاناً صاغية وظلَّ الشعراء يقفون على الاطلال ويصفون النياق حتى اننا نقرأ في اواخر القرن الماضي للعلامة المرحوم الشيخ ناصيف اليازجي اي بعد مرور اكثر من الف سنة على عهد ابي نواس قوله في مستهل احدى قصائده :

لمن طللٌ بوادي الرمل بادِ تخطُّ به الرياح بلا مدادِ
وقفت بناقتي فيه فكنا ثلاثة أرسم ، في ظلِّ وادِ

فهل نعجب بعد هذا من رسوخ هذه التراكيب في صلب اللغة وهذه حال الادب والادباء. أما في هذا العصر عصر السيارة والطيارة فقد تغيرت الحالة ولم يعد شعراؤنا يتحدثون الاَّ عن الزمان الذي يعيشون فيه ولا يصفون من الاشياء الاَّ ما يقع تحت حسهم بدلاً مما كان يألفهُ اهل القرون الخوالي . وهذا ما يبشر بنهضة جدية في ادبنا الحديث يتحفز بها لمجاراة آداب الشعوب الراقية . بيد انهُ اذا امكن تحرير الادب من قيود الاساليب القديمة فليس من الممكن ولا من الضروري تنقية اللغة من التراكيب التي في معانيها الاصلية دلالة على احوال القدماء ، ذلك بأن هذه التراكيب قد رسخت في الاستعمال وتداولتها الالسن والاقلام بمعانيها المجازية أما معانيها الاصلية فقد غابت من الاذهان بتاتاً ولم يبق لها عند الناس الاَّ هذه المعاني الاصطلاحية

***

(التجديد في اللغة) على اننا قد أخذنا نشعر بظهور من مظاهر التجديد في اللغة في ما نقرأه على صفحات بعض الصحف من تراكيب مجازية مبنية على صُور من حياتنا اليومية ، وهذه التراكيب تشيع تدريجاً في الاستعمال بحيث لا تلبث أن تجري مجرى المثل . من ذلك قولهم في

من يُثير فتنة نجرّ لنفسه مغنماً : « هو يصطاد في الماء العكر » وقولهم في العزم على ازالة التباس: «انا نريد وضع النقاط على الحروف» . فهذه استعارات لا بأس بها ومزيتها فائقة في ان المشبه به فيها معروف ومألوف لدى القارىء . ومعلوم ان الاستعارة مبنية على التشبيه ، والاصل في التشبيه ان يكون المشبه به معروفاً عند المخاطب ليقيس عليه المشبه الذي يجهله او يجهل شيئاً من صفاته

بيد ان اهم مظهر للتجديد هو في ما نراه من الاهتمام بوضع ألفاظ للدلالة على ما اوجدته الحضارة الحديثة من ادوات وما تستلزمهُ من معان . وهذه مهمة قد تألفت لها في السنوات الاخيرة مجامع لغوية في عدد من الاقطار العربية تضم فريقاً من علماء اللغة الذين يشار اليهم بالبنان وفي مقدمتها المجمع اللغوي المصري . ولا اريد الآن البحث في ما قامت به هذه المجامع من اعمال وما اتخذتهُ من قرارات ولكني اريد توجيه الانتباه الى قضية هي بمنزلة الاساس من العمل الذي اتخذتهُ على عاتقها واغفالها يؤدي الى ضياع الفائدة المتوخاة منهُ . تلك هي قضية العلاقة بين الفكر واللفظ في ما يراد الاتيان به من الاوضاع . وأعني بذلك ان يكون المعنى المراد اتخاذ الاسم منهُ عن اقرب ما يخطر بالبال عند تصور المسمى اذا كان المقصود الوضع بطريق الاشتقاق ، او ان تكون العلاقة بين المعنى الموضوع له اللفظ والمعنى المراد استعماله فيه قريبة لطيفة ، اذا كان المقصود الوضع بطريق المجاز . ونرى العرب قد راعوا بالبداهة هذه القاعدة في ما وضعوه من الالفاظ تمام المراعاة . ففي ما اشتقوه من الاسماء للسيف مثلاً قد وضعوا له الخذم والباتر والبتار والصارم والقاضب والقضيب والعضب والحسام والجراز من خذم وبتر وصرم وقضب وعضب وحسم وجرز وكلها بمعنى قطع والقطع هو اول معنى يتبادر الى الذهن عند رؤية السيف او تناوله . وكذلك ما وضعوه بطريق المجاز فقد راعوا فيه قرب العلاقة ولطفها كما في تسمية اللحمتين المتدليتين في جانبي الحلق باللوزتين ، وتسمية داخل الفم بالنار اي الكهف وما اشبه . اما اوضاع المجمع اللغوي المصري فانا لم نرَ في كثير منها هذه المراعاة ، كما في تسمية قطار الركاب مثلاً «بالوقّاف» عللوا ذلك بحجة بطئه وكثرة توقفه في المحطات . فان هذا المعنى ليس مما يتبادر الى الذهن عند رؤية هذا القطار منطلقاً وما من احد يركبهُ بقصد كثرة الوقوف في المحطات

ومثل تلك اقتراح تسمية المكرونة «بالدُّويداء» فانه اذا صح وجود جامع بين هذين الشيئين من جهة الهيئة فان هذه التسمية مستنكرة من جهة انها مبنية على تشبيه طعام مستطاب يستمرئه الناس بحشرات قذرة تتقزز النفس عند تصورها وهي مما تأكلهُ الخنازير . اولا يرى المجمع ان استعمال لفظة « الإطرية » في هذا المعنى وافٍ بالغرض . قال في القاموس : « الاطرية طعام كالخيوط من الدقيق » فان قيل ان هذا الاستعمال يحتاج فيه الى شيء من التوسع قلنا ان التوسع

لا بد منهُ في مثل هذا المقام كما نفعل في استعمالنا لفظة الحساء. فان ما نعرفهُ الآن بهذا الاسم يختلف كثيراً عما كان معروفاً منهُ عند العرب. فالمهم ايجاد الفاظ يرضى عن استعمالها الذوق السليم

وكما يجب مراعاة الذوق من جهة المعنى تجب مراعاته من جهة اللفظ ايضاً. فمن المحال ارغام جمهور الكتّاب والمتأدبين على استعمال ألفاظ غير مأنوسة او كريهة في السمع كما هي الحال في الارزيز والطرطران والطزر. والغريب في اللفظة الاخيرة ان ارباب المعجمات قد اختلفوا في تفسيرها. قال صاحب القاموس الطزر البيت الصيفي بلغة بعضهم، ومثله قال صاحب اللسان. اما في المخصص فقد جاء ان الطزر البيت الصيفي واتفق المجمع على ان اللفظة فارسية معربة. ولكن مع عجمة هذه اللفظة والاختلاف في تفسيرها لم يرَ المجمع بأساً من تقريرها لمدلول كلمة « فيلا ». ولا أعلم ما الذي أحرج المجمع فأحوجهُ الى ركوب هذا المركب الذي اقل ما فيه ابدال كلمة اعجمية بكلمة اعجمية وقد كان له غنىً عن ذلك في لفظة « دارة ». قال في القاموس: « الدارة المحل يجمع البناء والرحبة وهي أخصّ من الدار. ولم يذكر صاحب القاموس ما تتميز به الدارة عن الدار. ولكن دارات العرب مشهورة، وقد كانت مواقعها خارج المدن. وتغزُّل الشعراء بها دليل على انها كانت على جانب من الاناقة. وكل هذا ينطبق على تحديد كلمة « فيلا » جاء في تفسير هذه اللفظة في معجم لاروس une maison de campagne élégante فهل من حرج بعد هذا في تخصيص لفظة دارة لهذا المعنى لا سيما وفيها ما فيها من اللطف والرشاقة

ان اهم شرط في حياة ما يوضع من الالفاظ الحديثة هو ان يراعى فيه ذوق العصر الذي نحن عائشون فيه. وإن قريشاً لم تغلب لغتها على سائر اللغات في شبه الجزيرة لكونها أفصح العرب فالنبيّ انما استرضع في بني سعد، بل ان لغتها تغلبت لانها كانت أعلم العرب باختيار الفصيح من الالفاظ اي انها كانت اصحهم ذوقاً فكانت تنتقي من الفاظ العرب عند اجتماعهم في مكة ألطفها وقعاً على الآذان. وبهذا استظهرت لغتها على غيرها من لغات القبائل وتمت بها الوحدة المنشودة. فالواجب السير على هذه الخطة عند وضع الالفاظ الحديثة ليكون العمل مثمراً

***

وأختم كلامي الآن بشكركم أيها الحضور الكرام على ما أوليتموني من فضل اصغائكم، والدعاء للعاملين في سد حاجات هذه اللغة بالتوفيق في مساعيهم، لتظل هذه اللغة الشريفة متابعة سيرتها الاولى في خدمة الحضارة والعمران، قائمة بالغرض الذي يطلب منها على تقلبات العصور والازمان